

الفتنة الكبرى في الأندلس (الفتنة البربرية) (٣٩٩-٤٢٢هـ / ٩٧٦-١٠٣١م)

بعد مقتل عبد الرحمن شخول، عاشت الأندلس في دوامة من الصراعات السياسية حول تسلّم المناصب القيادية في البلاد ولم يكن الخليفة الأموي الجديد محمد المهدي بالمستوى المطلوب من الكفاءة والحكمة السياسية، فأرتكب العديد من الأخطاء الجسيمة التي تسببت في نشوب نار الفتنة، فلم يتخذ أعوانه من تسيير أمور الحكم من ذوي البيونات المشهورة والأكفاء الذين تمرسوا في السياسة وشؤون الحكم والإدارة، بل أتخذهم من العامة والغوغاء الذين لا خبرة لهم في مثل هذه الأمور الضرورية لاستقرار الدولة، وكان أول عمل قام به هو أن أرسل بعض أنصاره إلى سجن العامة فأطلقوا سراح من كان فيها من اللصوص والمجرمين، وأخذ هؤلاء اللصوص والغوغاء يعدّون على أهالي قرطبة بالسلب والنهب وخاصة مدينة الزاهرة وكان قد اعتصم فيها بعض أنصار الحاجب عبد الرحمن شنجول الذي تبع هؤلاء حشود من العامة على مدينة الزاهرة (مقر الحكم) وتمكنوا من نهبها وتخريب قصرها ثم أمر الخليفة المهدي بتدميرها.

ولعل ما ذكره ابن الرقيق القيرواني في كتابه تاريخ إفريقية والمغرب^(١) يُعدّ أبلغ وصف لما حدث إذ يقول: "وأعجب ما روي أنه من نصف نهار يوم الثلاثاء لربيع بقين من جمادي الآخرة إلى نصف نهار يوم الأربعاء، فتحت قرطبة، وهدمت الزاهرة، وخلع الخليفة هو المؤيد، وولي خليفة وهو المهدي، وزالت دولة بني عامر العظيمة، وقتل وزيرهم محمد بن عالجة وأقيمت جيوش من العامة، ونكب خلق من الوزراء، وولي الوزارة آخرون، وكان ذلك علي أيدي عشرة فحامين وجزارين وزبالين وهم جند المهدي".

ولم يكنف الخليفة المهدي بما فعله، بل ارتكب خطأ فادحاً آخر، إذ أخذ يستفز البربر ويظهر كراهيته لهم ويُحرض العامة في قرطبة عليهم، مع أنه بايعوه بالخلافة، ولذلك أظهر أهل قرطبة الكراهية للبربر ثم انفجرت هذه الكراهية إلى عدوان، إذ هاجم عوام أهل قرطبة ونهبوا دورهم واعتدوا على حريمهم ثم تم طردهم من قرطبة، وقام المهدي بالقبض على هشام وأخيه أبي بكر الأموي حيث قُتل بين يديه، فكان ذلك خطأ آخر ارتكبه، إذ كان ذلك سبباً آخر للخلاف والفتن، إذ تسبب مقتلهما في تصدع البيت الأموي الحاكم وإنشقاق أفراده على أنفسهم.

فكان أن فر الأمير الأموي سليمان بن الحكم من قرطبة ولحق بالبربر الذين تجمعوا بظواهرها فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالمستعين بالله، ونهضوا به إلى طليطلة وطلبوا العون من شانجه أمير

(١) نقل عن مخرج حسين، للمرجع السابق، ص ٧٢، لأنني لم اعثر على هذا النص في هذا المصدر، تحقيق المنجي الكبيسي، تونس ١٩٨٦.

قشتالة في شمال إسبانيا، فأمدته بقوات كبيرة زحف بها وبما تجمع لديه من قوات البربر إلى قرطبة، فخرج الخليفة المهدي بأهلها، والتقى الفريقان في معركة أسفرت عن انتصار المستعنين وقتل العديد من أهل قرطبة، حتى قيل أن عددهم بلغ عشرين ألفاً، ودخلها المستعنين، حيث فر منها المهدي إلى طليطلة والذي لجأ هو الآخر إلى طلب المساعدة من الأمير القشتالي شانجه الذي غير سياسته وأمد المهدي بالعون وهكذا استمرت الحرب الأهلية بين مصادر القوى في الأندلس وخاصة في قرطبة التي أصبحت مسرحاً للفوضى والفساد، وخشي الناس فيها على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وانتشر اللصوص والمجرمون وقطاع الطرق في النواحي في غياب السلطة الرادعة يزيدون الأمور تعقيداً.

أما المستعنين، فلم يتمتع بثمرة نصره طويلاً، إذ أن الفتنة فتحت باب الانقلابات السياسية الذي بدأت تتوالى بشكل متواصل مما زاد في سوء الوضع وزاده تعقيداً، فلم تلبث أن نشبت ثورة كبيرة عليه تزعمها علي بن حمود أحد أمراء الأدارسة حيث تمكن من قتل الخليفة المستعنين والاستيلاء على الحكم، ولكن لم يلبث أن قتل هو الآخر بعد فترة وجيزة فخلفه أخوه القاسم بن حمود الذي حاول أن يعيد الهدوء إلى قرطبة تمهيداً للقضاء على الفتن ولكن البربر الذين لم يكن يعجبهم ذلك، فتخلوا عنه وبذلك فقد قوته مما جعل أهل قرطبة يقومون بإقصائه وتنصيب أمير أموي آخر في منصب الخلافة، ولهذا فإن الفتنة الكبرى في الأندلس خلال الفترة (٣٩٩-٤٢٢هـ) أزالت حرمة الخلافة من النفوس، فأصبح من السهل خلع الخليفة أو قتله وإستبداله بآخر وفق الأهواء والمصالح وقد تمكن يحيى بن علي بن حمود الأدريسي من الوصول إلى الحكم، إلا أنه تم اغتياله بعد فترة وجيزة ونصب مكانه الخليفة هشام الثاني، وأخيراً نقول بأن نتيجة هذه الانقلابات والفتن كانت وبالاً على الأسرة الأموية بخاصة وعلى الأندلس بوجه عام، إذ أن ذلك أدى إلى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس في سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م بعد عزل آخر خلفائها هشام الثالث الملقب بالمعتمد بالله وإجلاء من تبقى من أبناء البيت الأموي عن قرطبة كما قال ابن الخطيب في كتابه أعمال الأعلام (١) "مشى البريد في الأسواق والأرباض بأن لا يبقى أحد في قرطبة من بني أمية ولا يكفلهم" حيث قامت بقرطبة حكومة جماعية عُرفت بحكومة الجماعة كانت أشبه بالجمهورية برئاسة أبي الحزم بن جهور، أما باقي بلاد الأندلس فتمزقت إلى كيانات عدة وهي التي عُرفت في التاريخ باسم عصر إمارات الطوائف (٤٢٢-٤٨٤هـ/١٠٣١-١٠٩١م).

(١) تحقيق لبيبي بروفسال، بيروت، ١٩٥٦، ص ١٣٩.

أسباب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس^(١)

١- غياب القائد العادل والقيادة القادرة على ضبط الأمور وضعف الخلفاء الأمويين بعد الحكم والمستنصر بسبب النظام الوراثي في الحكم.

٢- الفصل بين السلطة الروحية وبين السلطة الزمنية.

٣- التركيبة الاجتماعية في الأندلس من مكونات وعناصر مختلفة من عرب وبربر (مغاربة) وموالي وصقالبة ومولدين ومستعربين ويهود ونصارى التي كانت تميل إلى التكتل في بور عمرانية خاصة بها.

٤- الإستعانة بأمرء وملوك الممالك الإسبانية في الشمال، لأن النصارى كانوا يناصرون فريقاً على الآخر بموجب المبدأ القديم الجديد "فرق تسد".

٥- سياسة إضعاف العصبية العربية التي أتبعها الخليفة الناصر ومن جاء بعده، ذلك أن العرب كان هم سياج الدولة الأموية في الأندلس بالرغم من سلبياتهم وبتراجع مكانتهم وحلول البربر والصقالبة مكانهم، اضعف الدولة الأموية في الأندلس.

٦- دور النساء في التدخل بشؤون السلطة والتحريض على التآمر على الحجاب العامرين كالسيدة صُبْح أم الخليفة الأموي هشام الثاني وهي إسبانية الأصل والزلفاء أم محمد المهدي التي أتهمت بقتل الحاجب عبد الملك المظفر والحاجب عبد الرحمن شنجول.

أهم الأحداث في عصر الخلافة الأموية والدولة العامرية

نستعرض هنا أهم الأحداث في عصر الخلافة الأموية الذي هو استمرار للإمارة الأموية في الأندلس وبضمنها فترة الحجابة التي تمثلت بسيطرة محمد بن أبي عامر وأبيه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول على الخلافة الأموية (٣٦٦ ٣٩٩هـ) أعقبها فترة الفتنة الكبرى (الفتنة البربرية) التي استمرت من سنة (٣٩٩ ٤٢٢هـ). ومن أهم الأحداث هي:

أولاً:- السياسية الخارجية^(٢)

١- العلاقات مع الفاطميين:- بقيت علاقات الأندلس مع الفاطميين يسودها العداء لأن الخلافة الفاطمية في المغرب كانت تنافس الخلافة الأموية في الأندلس من أجل السيطرة على المغرب من

(١) خليل السامرائي وآخرون، المرجع السابق، ص ٢١٦-٢١٨.
(٢) انظر خليل السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص ١٨١-٢٠٥، محمد سعيد العقبى ومحمد سعيد العامري، تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣١٥-٣٨٠.